Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

رسالة الأسمر إلى تمبكتو

وقفات دلالية وقيمية في السياق الأفريقي

د. أخضر عبد الباقي محمد *

تمهيد: الشيخ الأسمر والمدّ الإسلامي في أفريقيا

ارتبطت حركة المدّ الإسلامي وانتشار دعوته في القارة الأفريقية بالعديد من العوامل والأسباب المجتمعية والتي تضافرت مع بعضها البعض في إنجاح الدعوة واستمراريتها، وقد برز العامل الصوفي ورجالات الصوفية كواحدة من بين تلك العوامل في العديد من الكتابات التاريخية والأدبيات الفكرية التي عنيت بهذا الجانب، ولعل الممالك والإمبراطوريات الأفريقية ذات المرجعية الإسلامية والتوجه الحضاري الثقافي العربي خير مثال وشاهد على ذلك، وعلى هذه الحيثية؛ لمعت نجوم من الأئمة وأعلام الصوفية، ألقوا بظلالهم على تاريخ الدعوة والعلم والتربية في المنطقة، ومن بينهم الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري (880هـ-981هـ)، والذي انعكست جهوده بشكل كثيف على حركة البحوث والكتابات التاريخية في مجال الفكر الصوفي في بلاد المغرب العربي، لاسيما عند الحديث والتناول التاريخي لمسيرة الحركة والطرق الصوفية ورجالاتها المؤثرين والمبرزين في ساحتي العلم والفكر والثقافة والتربية والتصوف.

فعلى الرغم من المجادلات والسجالات التي دارت حول شخصية الشيخ عبد السلام الأسمر والإفاضات المبالغ فيها، والتي وردت عنه في ذكر جانب الكرامات وخوارق العادات التي تنسب إليه، فإنّ في التراث العلمي للشيخ عبد السلام الأسمر

* مدير المركز النيجيري للبحوث العربية، نيجيريا.

مؤشرات ودلالات قوية ومباشرة على مدى الثراء العلمي الذي تميزت به مدرسته الفكرية، وما تمثّله زاويته الأسمرية من إشعاعات علمية فضلاً عن الجوانب الروحية لمريديه وأتباعه، سواء على مستوى البيئة الداخلية التي تتواجد فيها مدرسته وزاويته أو حتى على مستوى البيئة الإقليمية ومحيطها الخارجي، ولعلّ من أكبر الشواهد المباشرة ذات المصداقية العلمية العالية الكنوز الفكرية المختلفة من الوثائق والرسائل العلمية التي كتبها الشيخ الأسمر إلى أنصاره وجماعته في الداخل أو المناطق البعيدة عنه. وتأسيساً على ذلك، وحرصاً منّا للوقوف على بعض تلك المعالم والملامح ذات أبعاد تأكيدية على جوانب سعة الأفق والرؤية العلمية الشاملة المتعددة الأبعاد للشيخ، تنطلق هذه الورقة البحثية لإخضاع رسالة الشيخ عبد السلام الأسمر إلى جماعته ومريديه في مدينة تمبكتو الواقعة في دولة (مالي) اليوم، مستهدفة إبراز الدلالات والمؤشرات ذات الاعتبارات القيمية من مضمون تلك الرسالة استناداً على واقع أوضاع الشعوب المسلمة في تلك المنطقة وفي السياق الأفريقي العام.

وفي إطار التقسيم الموضوعي للورقة، فتتكوّن من مقدمة ومبحثين أساسيين، فخاتمة، حيث تضمنت هذه المقدمة شرحاً مقتضباً عن المدّ الإسلامي وانتشار دعوته في بلاد أفريقيا وإسهامات رجال الصوفية فيه و بعضاً من جهود الشيخ الأسمر وجماعته في ذلك، وتعرض المبحث الأول فيه لشرح بعض أهم القضايا المنهجية التي تتعلق بالمنهجية المتبعة في توثيق رسالة الأسمر إلى تمبكتو، وإبراز المرجعية العلمية لرسائل الشخصيات الفكرية وقادة الرأي في الدراسات الاجتماعية، كما تمّ فيه أيضا توضيح المتغيرات المعتبرة لاعتماد المنهجية الدلالية لدراسة الرسالة وحيثيات تفضيلها على المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة، وخصّص المبحث الثاني لتسليط الأضواء على الاعتبارات القيمية الواردة في تلك الرسالة من خلال أربعة عناوين رئيسة، أولها إبراز الملامح العامة للرسالة، والثاني معلومات عن البنية العامة للرسالة، فيما تحدد ثالث تلك العناوين في تجلية أبعاد الدلالات والقيم الاعتبارية الواردة في الرسالة، وآخرها اهتمّ برصد حيثيات ارتباط تلك القيم والدلالات بالسياق الأفريقي، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: القضايا المنهجية في دراسة رسالة الأسمر إلى تمبكتو

منهجية توثيق رسالة الأسمر إلى تمبكتو

تحددت المنهجية المتبعة للباحث بشأن الجانب التوثيقي لرسالة الشيخ عبد

السلام الأسمر إلى تمبكتو، والتي تعتبر المصدر الوحيد والرئيسي لهذه الورقة البحثية في الاعتماد على كتاب (مجموع رسائل الأسمر إلى مريديه)، والذي جمعه وحقّقه وقام بدراسته الأخ الدكتور مصطفى عمران رابعة، حيث اشتمل على العديد من الرسائل التي كتبها الشيخ عبد السلام إلى أصحابه أهل الطريقة العروسية في مختلف الأمصار والأماكن والتي من بينها أتباعه ومريدوه في مدينة تمبكتو، وترجع حيثيات الاعتماد على هذا الكتاب كمصدر وحيد معتمد عليه في توثيق النصوص الأصلية للرسالة إلى كونه أول كتاب مطبوع يجمع رسائل الأسمر بعد جهد علمي كبير بذل في تحقيق نصوصها الأصلية ودراستها دراسة موضوعية معمّقة حسب اطلاع الباحث، وهناك سبب آخر جعل اللجوء إلى هذا الكتاب متحتماً وهو عدم وجود كتاب آخر يجمع ويتوفر له ما لكتاب الدكتور مصطفى عمران رابعة، من الخصائص والمميزات العلمية السابق الإشارة إليها، علاوة على ذلك كله، فإنّ الأدبيات الخاصة بتاريخ المسيرة العلمية والحضارية للأسمر جامعاً وجامعة لا سيما المتعلقة بالتراث العلمي والفكري للشيخ عبد السلام الأسمر قد أجمعت على أنّ الكثير من المصادر والوثائق العلمية لعلوم الأسمر وأفكاره لا يزال مفقوداً وغير متاح، لذا؛ لم يكن هناك وسيلة أخرى للحصول على القليل الموجود منها سوى كتاب (كريم الدين البرموني) المعروف والموسوم بـ(تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر) والذي حقّقه واختصره الشيخ العلامة سيدي محمد بن محمد بن عمر مخلوف، وأطلق عليه (مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم)، وكذلك كتاب عبد السلام بن عثمان التاجوري المعنون بـ(فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم)[1]، وأكدت ذلك كتابات عليّ مصطفى المصراتي[2].

المرجعية العلمية للرسائل، المؤشرات العامة

تحتل رسائل الملوك والعظماء والشخصيات الكبيرة المؤثرة، موقع اهتمام وعناية كبيرين لاسيما في الأوساط البحثية والأكاديمية، وتجد اهتماماً أكثر في مجال الكتابات

1- انظر: عمار جحيدر (1991) آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، ط أولى، طرابلس: الدار العربية للكتاب، ص268-269

2- عليّ مصطفى المصراتي(1977) مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم، عرض ودراسة طرابلس: الشركة العامة للنشر والإعلان ص

التاريخية، لأنّها تمثّل واحداً من المصادر التاريخية والاجتماعية والأدبية والتي لا تقلّ شأناً ودرجة عن المصادر الأخرى، وقد وجدنا كتابات ترفعها لدرجات أعلى من بين المصادر الأخرى، لاعتبارات كثيرة، منها كون الرسائل تحمل توقيعات أصحابها مباشرة وبشكل واضح، بالإضافة إلى أنّها تحمل تواريخ محددة لأحداثها[3]، غير أنّ التوقيت والسياق يعتبران عنصرين أساسيين في إضفاء تلك الأهمية والتقدير البالغين على الرسائل، على مختلف الأصعدة، بل حتى في الفكر الديني من حيث إعطاء توصيف للأحكام القيمية للأشياء عامة، وفي مجال الأفعال والحركات على وجه أخصّ.

ومن دون شك، تعتبر رسائل العلماء وقادة الفكر وحركات الإصلاح واحدة من بين العوامل والأسباب المجتمعية المحرّكة للتاريخ ولنهضة المجتمعات وتقدّم الشعوب، واستناداً على متغيرات كثيرة يمكن البرهنة على مرجعية رسائل العلماء والمفكرين من خلال ما تحمله من دلالات ذات معان عميقة في تفسير البيئة الاجتماعية العامة للرسالة، والتي من بينها[4]:

1. تمثّل الرسائل ذاكرة حقيقية لتوثيق العلوم والمجموعة المعرفية التي تتمتع بها أصحابها، بشكل مبسط.
2. تعدّ تلك الرسائل مسجّلاً أميناً للحركة العامة للمجتمعات التي عاش فيها أصحابها والتفاعلات المجتمعات.
3. تعدّ مؤشراً على مدى يقظة رجال الدين والعلماء وطلبة العلم وعلى مدى متابعتهم للواقع وما يجري في البيئة.
4. تفيد مضامين تلك الرسائل في قياس حالة الرأي العام لمجتمعاتها في فترات صدورها.

أهمية المنهجية الدلالية في دراسة الرسائل

المتأمل في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر يجد نفسه أمام شخصية علمية متشعب بغزارة علمه وأصالة فكره وتعدد أوجه اجتهاداته واهتماماته، لذا؛ فإنّ أية مقاربة

3- عمار جحيدر (2003) مصادر دراسة الحياة الفكرية في ليبيا في العهد القرمانلي 1123-1251، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ص 25-27

4- هذه الأمور تمثّل خلاصة جهد الباحث واستنتاجاته بعد الاطلاع على العديد من كتب التاريخ ورسائل العلماء والملوك.

علمية جادة لدراسة فكر هذا العالم الجليل ينبغي أن تأخذ في الحسبان تلك الاعتبارات والمتغيرات، فليس أمامه سوى اللجوء إلى المنهجية الشمولية ذات نظرة كلية لتجلية أبعاد هذه الموسوعية العلمية.

ولعل من مبررات استخدام المنهجية الدلالية في دراسة رسائل الشيخ عبد السلام الأسمر، اعتماد هذا النوع من المناهج وبشكل كبير على الدلالات الاجتماعية وقدرتها الفائقة في اكتشاف الجوانب الفنية في النص والوقوف على تقنياته، كما أنها تتميز بالقدرة على مواجهة الفكرة الجوهرية للخطاب وتجاوز المستويات التفكيكية الجزئية، حيث إنّ محورية الهدف والغاية أو المحطة الأخيرة تعتبر أسمى أغراض مباحث المنهج الدلالي متوسلاً بجزئيات اللغة والألفاظ الصريحة المباشرة والمحملات الإشارية[5]، وهناك بعد عملي أكثر جدوى في اعتبار هذه الورقة وأهدافها لتتجاوز منهج التحليلات التفكيكية اللغوية، وهو أنّ الاقتصار على المنهج التحليلي اللغوي لا يعطي مؤشرات قيمية معتبرة بمفردها ما لم يرتبط بدلالاتها وسياقاتها الاجتماعية؛ لأنّ تلك الدلالات والسياقات هي التي تمنحها صبغة اجتماعية مؤسسية وتضفي عليها أبعاداً نفسية حضارية ثقافية تجعل لها مجالات أرحب وفضاء متسعاً وحقولاً معرفية متنوعة[6] كلها مميزات لهذه المنهجية على غيرها من المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة.

المبحث الثاني: وقفات دلالية وقيمية في رسالة الأسمر إلى تبمكتو

الدلالات والقيم الاعتبارية في الرسالة

بعد قراءات ووقفات مدققة لرسالة الشيخ عبد السلام الأسمر إلى مريديه وجماعته في تمبكتو[7]، وكذلك تأملات معمّقة في فحواها ومضمونها مع تقليب النظر

5- (2000) المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث ط أولى مجموعة دراسات، ترجمة: عبد القادر قنيتي، المغرب: دار أفريقيا الشرق، ص 22-25

6- بيير. ق. زيما (1996) التفكيكية دراسة نقدية، تعريب: أسامة الحاج: بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. محمد سليمان الزيات (2002) النسق والدلالة: دراسات نقدية في النص الروائي، ط أولى، طرابلس: سلسلة كتاب فضاءات العدد الثاني، الركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ص 11-18

7- مصطفى عمران رابعة(2003) رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريديه، جمع وتحقيق ودراسة، ط أولى، بنغازي: دار المدار الجماهيرية العظمى.

في علاقاتها الهيكلية بكل مكوّنات جذورها ومحيطها المكاني والزماني، يمكن القول –ولو نسبيا– بأنّ الرسالة تمكنت بالفعل من تحقيق الهدف الرئيس منها، والغرض الأساس لصدورها، حيث اشتملت على أهم القيم والمعاني ذات الاعتبار القوي في الفكريين الديني والاجتماعي، وللوقوف على ذلك بشكل أكثر وضوحاً وتفصيلاً، سيتم تناول تلك الأبعاد من خلال العناوين التالية:

1. الملامح العامة للرسالة
2. السمات الرئيسة لبنية الرسالة
3. الدلالات والقيم الاعتبارية في الرسالة
4. حيثيات ارتباط القيم والدلالات بالسياق الأفريقي

أولاً: الملامح العامة للرسالة

ارتسمت السمات الأساسية لهذه الرسالة الأسمرية إلى تمبكتو في جملة من الملامح والخصائص، يمكن إجمالها في الآتي:

1. وضوح الهدف من إصدار الرسالة والغرض من توجيهها إلى هؤلاء المريدين من حيث المبدأ، وهو توجيه كلمات النصيحة والإرشاد، الشيء الذي تحدد واضحاً في قول الأسمري نفسه بشكل مباشر قائلاً « فهذه نصيحة مني إليكم وهي: ... »[8].
2. التركيز على الكليات العامة والأصول الكبرى في العقيدة والأخلاق والمعاملات، « فأول ما يجب عليكم تصحيح إيمانكم ... »[9].
3. تقديم المشترك الإنساني في النصيحة، وتقديم القيم الأخلاقية المعتبرة التي جاء الشرع والسنة المطهرة لإثباتها وتكميلها، « إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » الحديث، حيث جاءت الإشارات والتوجيهات معلية لشأن القضايا الأخلاقية والضوابط الشرعية المنظمة للتعامل مع الناس.
4. الاعتماد على النصوص والنقول والآثار للاستشهاد بها والبرهنة والإقناع، (أقوال الصحابة / التابعين /السلف عموماً)
5. الالتزام بأسلوب الوحدة الموضوعية واستخدام تقنيات تعبيرية معينة للإفادة

8- مصطفى عمران رابعة (2003) رسائل الأسمر عبد السلام إلى مريديه ص 232.
9- المصدر نفسه ص 232.

بالمنهجية المتبعة في ذلك، (اعلموا /أوصيكم /فائدة /إخواني ...)[10].

6. توضيح ضوابط السلوك المعتبرة في مجال التربية والتعلم والدعوة والآداب العامة للترقية الأخلاقية للمسلم عامة، وما يتعلق بالانتساب للطريقة العروسية خاصة.

ثانياً: البنية العامة للرسالة

المؤشرات العامة عن الرسالة تفيد عدة أمور حول البنية العامة لهيكل الرسالة، وأهمها:

1. على المستوى الظاهري للغة المستخدمة فإنها لغة سليمة واضحة تمتاز بسهولة التركيب بالإضافة إلى سمة أخرى أكثر أهمية بالنسبة من السمتين السابقتين هي وضوح المعاني والدلالات المحمّلة بالألفاظ والتعبيرات.
2. من حيث البنية التركيبية العامة للرسالة فقد جنحت نحو البداية التقليدية الكلاسيكية للرسائل والنصائح المعتادة عن العلماء والمشايخ، والتي تشتمل على البسملة والصلاة على رسول الله، ثم التوصيفات الخاصة بالناصح أو مقدّم النصيحة في صيغ الانكسار والتذلل لربّه ثمّ السلام على الموجّه إليهم النصيحة يليه موضوع الرسالة[11].
3. الشكل العام لبناء الرسالة ولأسلوب سوق وإيراد موضوعاتها قد جاء على شكل الهرم المقلوب، حيث بدأت في خطابها بالأمور والموضوعات العامة التي تخصّ كل مسلم، ثم بالموضوعات الخاصة تلتها الموضوعات الأكثر خصوصية والتي تتعلق بأهل الطريقة العروسية.
4. الحرص على الاستخدام الأمثل للاستراتيجيات الإقناعية بقدر عال من الكفاءة، بسوق الحيثيات والمبررات المنطقية لإقناع المخاطبين بوجهة نظره. «أعربوا الكلام حتى تعربوا القرآن»[12]، كما تنوعت المداخل وأسس المقاربات للإقناع ثنايا الرسالة، مثل الاستمالات العاطفية للمخاطبين (إخواني)[13] واستمالات التخويف كما في حديثه عند النهي عن شرب الدخان «وإياكم وشرب الدخان ... وهي شجرة قبيحة الرائحة ... خلقت من بول إبليس»[14].

10- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 232-233-241-234

11- مجموع رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية

12- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص232

13- المصدر نفسه ص 239

14- المصدر نفسه ص 240

5. أسلوب آخر كان له حضوره في الرسالة هو أسلوب التعليل المنطقي في سوق الأدلة لتبرير وجهات نظره، مثل قوله: « وقد اتفق العلماء على أنّ النحو محتاج إليه في كل فنّ من فنون العلم، أما التفسير، فلا يجوز لأحد أن يتكلّم في كتاب الله تعالى حتى يكون ملياً بالنحو »[15].
6. درجات البرهنة ومستويات الاستدلال وتركيبات المعاني ودلالات المضمون في الرسالة كلها مؤشرات تفيد بأنّ معظم المخاطبين والموجّه إليهم الرسالة كانوا من العلماء وطلبة العلم، لعنايتها بسوق الأدلة والحجج للاستدلال على التوجيهات الواردة والخلافات الفقهية والفكرية بين العلماء عن بعض القضايا المثارة، فعلى سبيل المثال قوله في معرض الحديث عن المنطق وتعلّمه « ولا ينبغي التعمق في المنطق بعد قدر الكفاف ... المنطق علم شريف ... فمن لم يتوغل في النحو والمنطق لا ثقة لي بعلمه ... لا يجوز له القدوم على التصانيف وقراءة الأحاديث والتفاسير »[16].
7. الحرص في استخدام المصطلحات الصوفية في الجزء الخاص والمتعلق بالتوجيه المباشر للمريدين للعمل بمقررات الطريقة، وضوابط الانتساب إليها (الأحوال الحقانية) و(أدب الباطن) و(أدب الظاهر) و(العارفون) و(وجوه المعرفة) و(مشهد) و(الفقراء) و(الذاكرون) و(الزهد)[17].

ثالثا: الدلالات والمؤشرات القيمية في الرسالة

تضمنت هذه الرسالة الكثير من المعاني والدلالات ذات الاعتبار والمحمّلة بقيم دينية عليا، وقيم اجتماعية مثلى، يتبيّنها الناظر والمتأمل في تلك الرسالة، والتي من بينها:

1. قيمة التعامل الأخلاقي، حيث أعطاها الشيخ عبد السلام الأسمر أولوية مطلقة على غيرها من الآداب والتعاليم التي ركزت عليها الرسالة في توجيهاتها، فقد جاءت كأول وصية بعد تقوى الله مباشرة، حيث قالت « فأوصيكم أيها الفقراء المنتسبين إلينا وإلى طريقتنا بأن لا تكونوا مغشّين مموهّين ... إلخ »[18]، حيث كانت الرسالة

15- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 235
16- المصدر نفسه ص 233
17- المصدر نفسه ص 244-250
18- المصدر نفسه ص 232

شديدة الوضوح في النهي عن مجموعة من السلوكيات التي تعتبرها سلبية ومشوهّة لصورة الإسلام وتعاليمه السمحة، مثل ممارسة الغش والتمويه على الناس، ومحاولات تبديل الحقائق أو تبديلها، كما نهت الرسالة عن ممارسة العناد والجدل العقيم والمنازعة المبالغ فيها مما قد يوصل لدرجة مخيفة مرهبة للناس.

2. قيمة الاعتقاد السليم، والتي أبرزت الرسالة أهميتها بالتأكيد على جعل تصحيح المعتقدات مدخلاً للعبادة ومفتاحاً لها، مصدّرة توجيهاتها بالقول: « فأول ما يجب عليكم تصحيح إيمانكم »[19] الأمر الذي يؤكد به الشيخ عبد السلام الأسمر ملمحاً أساسياً في تحديد ملامح مدرسته الفكرية ونهجه الإصلاحي لأتباعه ومريديه، مما يتقاطع به في منهجيته هذه مع عدد من رواد الإصلاح من المجددين المعتبرين في مسيرة الحضارة الإسلامية.

3. قيمة الفقه في الدين، هي الأخرى من المعاني ذات الدلالة البارزة في التأكيد والتنويه بها في هذه الرسالة، محددة المقصود بهذا الفقه ومجاله، والذي يعني حصول فهم وإدراك عميقين لأمور العبادة والقضايا ذات الصلة بجزئيات فروع الدين مما لا تصحّ العبادة إلا به، وقد جاء تعبير الرسالة أكثر وضوحاً وبلاغة في إبراز هذه القيمة والبرهنة على أهميتها بالقول: « فأول ما يجب عليكم تصحيح إيمانكم، ثمّ معرفة ما يصلح بكم من فرض العين كالطهارة والوضوء والصلاة ونحو ذلك »[20]، وقد توفقت الرسالة عند هذه القيمة طويلاً معللة حيثيات الوجوب ومتعلقات الفقه في الدين.

4. قيمة إجادة اللسان العربي بتحصيل علم النحو والقواعد التي يعرف بها تنظيم الكلام العربي وتضبط حركات الكلمات ضبطاً سليماً، كانت للرسالة وقفات مطوّلة مستفيضة في شرح حيثيات الوجوب ومزايا تحصيل هذا العلم، مسترسلة في أوجه استخداماته مبرهنة على ذلك كله ببعض النقول والنصوص والآثار، منها قولها « تلّموا النحو، فإنّه زين الكلام وجمال المنطق وقوام اللسان ... إلخ »[21].

5. قيمة تقدير الأولويات وترتيبها، كانت من بين الدلالات المهمة التي أكدت عليها الرسالة تصريحاً وتلميحاً خلال تناولها للعديد من القضايا التي رغّبت إليها

19- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 232.

20- المصدر نفسه ص 232.

21- المصدر نفسه ص 232.

المـريدين والأتـباع للـشيخ الأسمر، والتي يستنتج منها منهج الشيخ في تقرير قاعدة الأولـويات وتـرتيبها، فمـثلاً عـند حديثه عن النحو والترغيب في تحصيلها، أشارت الرسـالة بالقـول: «واعلمـوا أنّ مـن اعتنى به مع حصول فرض العين إلى أن اقتصر على بعضه وعلم منه ما يصلح به لسانه، واجتنب التوغل فيه فحسن»[22].

6. قـيمة التواضـع وإظهـار الاحـترام للـناس بعـدم التعالي عليهم بالاستهزاء أو التعالم لاسيما ممن تحصّل على معارف وعلوم جديدة نادرة مما قد يعطيه ميزة واعتبارات ذات قـيمة في المجـتمع، مـثل جـودة اللـسان والحديث بالعربية، فقال: «ولا ينبغي للنحوي أن يرى نفسه فوق غيره تكبراً، ولا يحلّ له أن يستهزئ بكلام الغير إذا قارنه اللحن»[23].

7. الـدأب علـى إظهار القيمة الاعتبارية العليا للعلوم الدينية ذات منحى تطبيقي عملي ملمـوس في حياة الإنسان، وإعطائها الأولوية المطلقة في جميع الأحوال والظروف، «أوصيكم بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة ومذاكرة، لأنّ علم الدين أفـضل مـا يحـوزه العـبد مـن المـراتب العلـية ... قليل العمل مع العلم كثير، وكثير العمل مع الجهل قليل بحسب المثوبة والقبول»[24].

8. حملت الرسالة وبلهجة قوية نحو التنفير من بعض العلوم والمعارف ومجموعة من الـسلوكيات باعتـبارها مجمـوعة معـرفية ضـارة وبالتالـي أخـذت بمـوجب تلـك التوصـيف حكمـاً قيمياً في الاعتبار الديني (حرام) حيث قسمت الرسالة العلوم من حـيث وجـوب تعلّمهـا من عدمها إلى فرض عين، وفرض كفاية، ومندوب وحرام، وذكـر مـن بـين الـنوع المحـرّم (علـم الفلسفة) والشعبذة والتنجيم والرمل والقرعة والتفازة إلى غير ذلك[25].

9. التركيز على البعد الاتباعي والتنديد بالابتداع في الدين وظهر ذلك في السياق العام للرسـالة ومـن الموضـوعات والقـضايا المعروضة حتى في حالة الخطاب الموجّه:

22- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 233

23- المصدر نفسه ص 233

24- المصدر نفسه ص 236

25- المصدر نفسه ص 237

« جعلهم الله من أهل السنة والكتاب »[26].

10. ظهرت خلال الرسالة محاولات جادة من الشيخ الأسمر لترسيخ قيمة عرض المعلومات كافة بجوانبها المتعددة، حتى ولو تناقض بعضها مع الآخر، كما ظهر في سياق حديثه وعرضه لأقوال العلماء في جواز تعلم المنطق مثلاً، حيث قال: « ولا ينبغي التعمق في المنطق بعد قدر الكفاف ... قال بعضهم: والله لن أقرأ علماً جمعه الخوارج ... إلي ... فمن لم يتوغل في النحو والمنطق لا ثقة لي بعلمه »[27].

11. قيمة تقدير العلماء والمشايخ بالتبجيل والتوقير، كان من بين الدلالات ذات الإشارة المعمقة في الرسالة بطريقة مباشرة وغير مباشر، وقد وردت تعبيرات كثيرة من الشيخ في سياق هذه الرسالة تؤكد ذلك وتعلي من شأن هؤلاء المشايخ، مثل قوله في سرد وجهة نظر شيخه الدكالي عن التدخين: « سئل شيخنا عن شرب الدخان هل حرام أم لا؟ »[28]، وقوله أيضا: « وسئل عنه أيضا والد شيخنا سيدي محمد الدوكالي رحمه الله »[29].

12. من القيم السلبية حسب رأي الشيخ في رسالته هذه اتخاذ المساجد مكاناً يجمع فيه الصبيان لتعلم القرآن لاحتمال حصول بعض المخالفات التي لا تتفق مع حرمة المسجد، كما نصت الرسالة على ذلك بالقول: « ولا يجوز للمؤدب أن يعلّم الصبيان في المسجد القرآن فإنّ فاعل ذلك يأثم »[30].

13. جنحت الرسالة نحو التأكيد والتشديد على الأدبيات الصوفية الشائعة في الفكر الصوفي والمنتشرة في العديد من البلدان والمجتمعات المبالغة في الترغيب نحو الزهد والورع والدعوة إلى كثرة التنسك والتبتل، منمؤشرات ذلك في الرسالة « قال بعض الشيوخ طلبنا خمساً فوجدناها في خمس ... »[31].

14. مالت الرسالة نحو إبراز بعض القيم من العادات والسلوكيات على أنها غير مرغوبة

26- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 232

27- المصدر نفسه ص 235

28- المصدر نفسه ص 241

29- المصدر نفسه ص 241

30- المصدر نفسه ص 240

31- المصدر نفسه ص 239

مـن العـبد المسلم السالك للطريقة الصوفية باعتبارها من عوادم المروءة مثل شرب الـدخان ومخالطـة الفـسقة والفجرة من غير الحاجة، « وإياكم وخلطة الأراذل وأهل الاعتـزال والفـسقة والزنادقة واليهود والمجوس إلا لقضاء حاجة ضرورية لا توجد عـند غيرهـم ... الخ »[32]، كمـا حـذرت مـن بعض القيم الأخرى مثل الكبر المزاح وكثرة الضحك.

15. نجحـت الرسـالة في إرسـاء الأسـس والمـبادئ الأخلاقـية للعشرة والآداب المتعلقة بالـصحبة، ونظّـرت بجـدارة لفنّ الاستماع والمحادثة، أما ما يعرف اليوم في مجال العلاقـات العامـة والاتـصال بفـنّ الاسـتماع وأسلوب كسب الآخرين والتأثير فيهم، فينبغـي « للجـالس أن يكـون أديـباً حسن المنظر، مستبشر الوجه لين الكلام حسن الحديث قليل الكذب ذا عقل وفهم ونصح صريح وودّ صحيح وأمانة تامة ... »[33].

16. لمحـت الرسـالة بـذكاء شـديد إلى أهمية رد الاعتبار للجمهور المستهدف والمتلقي للرسالة، وذلك بالدعوة إلى ضرورة مراعاة مقتضى اهتمامات المخاطبين وأذواقهم، وفي ذلـك قالـت « فـإذا جلـستم مـع أهـل التوحـيد فحدّثـوهم بالعقائـد الأشعرية والـسنوسية، وإذا جلـستم مـع أهـل القـرآن فحدّثـوهم بالحـذف والإثـبات والتدبـر والترتيل وكل مسألة تدلّ على الألفاظ القرآنية ... »[34].

17. من الألعاب المألوفة والتي اعتبرتها الرسالة من القيم السلبية اللعب بالشطرنج وعمل الطلاسـم والـسحر والعـزائم بوصفها من الأعمال الباطلة بل ربطتها بالكفر « وإياكم واتـباع علـم الكيمياء والكنوز والجداول والتبريج والفال وتقليب القلوب ... واللعب بالنرد والشطرنج ... إلخ »[35].

18. أبرزت الرسالة إبراهيم بن أدهم في إطار من التتويج والتبجيل باعتباره رائدا وشيخاً للطـريقة العروسية على الإطلاق وذلك في سياق إيراد قصة عنه واصفة إياه بالقول: « وقـد مـرّ إمـام طريقتنا إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه، على حجر مكتوب علـيه: اقلـبني تعتبر، قال فقلبه فإذا مكتوب في باطنه: أنت بما تعلم لا تعمل، فكيف

32- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 241

33- المصدر نفسه ص 242

34- المصدر نفسه ص 243

35- المصدر نفسه ص 248

تطلب علم ما لم تعلم؟»[36].

19. نجحت الرسالة في تجلية معاني التزكية والتربية وغيرهما من المصطلحات ذات الاعتبار القيمي لدى الصوفية وإعطائها دلالات مجسّدة للسلوك وشاخصة لتصرفات الفرد، حيث قالت بوضوح «ومن علامات الإخلاص أن لا يتكدّر ممن نسبه إلى الجهل وعدم الفهم ولا من قال فيه: إنّ فلاناً يتعلم العلم حجة عليه ... ومن شأن الطالب أن ينّظف باطنه من الأشياء المهلكة كالكبر والحرص ودعوى العلم ومحبة الدنيا»[37].

20. من القيم والدلالات العميقة المستنتجة من الرسالة رد الاعتبار لأهل العلم والرجوع إلى أهل الاختصاص في كل فنّ وعلم تعرض له الشيخ الأسمر في تلك الرسالة، لذا؛ نجده مثلاً في سياق حديثه وذكر ما قاله علماء الحديث في الاهتمام بعلم النحو، قال:« وقد اتفق العلماء على أنّ النحو محتاج إليه في كلّ فنّ من فنون العلم ... وأما الحديث فقال ابن الصلاح: ينبغي للمحدّث أن لا يروي حديثه بقراءة لحان»[38]، كما استشهد بعلماء اللغة وفقهائها مثل الأصمعي، وابن بابشاذ[39] وبإمام الزهد والورع سفيان بن سعيد الثوري في سياق الحث على ترك الملذات[40].

21. من القيم والدلالات المؤكدة لمعان قيمية عظمى في الإسلام ما أشارت إليه الرسالة في شأن الجوانب الضرورية للأخذ في الحسبان والاعتبار عند التخطيط للزواج والارتباط الأسري، وقالت: «اختاروا لأنفسكم وأولادكم الزوجات الطيبات ذوات الحسب والنسب»[41]، كما حذرت الرسالة من الزواج بنساء ذوات صفات خلقية وخلقية قبيحة[42].

رابعاً: حيثيات ارتباط تلك القيم والدلالات بالسياق الأفريقي

ارتكزت رسالة الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري إلى مريديه وجماعته في

36- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 250

37- المصدر نفسه ص 249

38- المصدر نفسه ص 235

39- المصدر نفسه والصفحة نفسها

40- المصدر نفسه ص 236

41- المصدر نفسه ص 245

42- المصدر نفسه والصفحة نفسها

تمبكتو على العديد من المعاني والدلالات ذات الارتباط القيمي على الصعيد الأفريقي عامة ولدى المجتمعات والشعوب المسلمة في المنطقة، الشيء الذي يؤكد من جديد مدى سعة الاطلاع وغزارة علم الشيخ الأسمر، وعلى وجه أخصّ يشير إلى ما يتميز به منهجه الفكري ومدرسته العلمية من رؤية ناضجة وثقافة بيئية عالية في مجال الدعوة والتعليم والتربية، ومما يمكن أن نشير إليه من المعاني ذات تقاطعات مباشرة مع واقع أوضاع المسلمين وطلبة العلوم الشرعية في بلاد أفريقيا ما يلي:

1. قيم التواضع مع حصول العلم باللسان العربي، علم النحو مثلاً، وهذه الإشارة تعتبر لمحة ذكية من الشيخ في ظلّ الجدل الثائر بين العلماء وطلبة العلم في المجتمعات الأفريقية حول ذلك العلم واكتسابه سلباً وإيجاباً، لاسيما ما يسود وسط المتعلمين والمكتسبين لهذا العلم من حالة زهو وفخر وتعال على غيرهم من العلماء في الأوساط المحلية، والتي تصل لدرجة الانتقاص من مكانة من لا يعرب أو يستقيم لسانه في النحو، والأسوأ من ذلك كله تبادل الشتائم والاتهامات بين الطرفين، وحالة تأزمت معها الأوضاع العلمية والدعوية في أفريقيا ولها تداعيات سلبية كبيرة على الدعوة والدعاة هناك[43].

2. استثارة الرسالة لهمم العلماء وطلبة العلم على الجدية في استقامة اللسان العربي بتحصيل علم النحو والتعمق فيه قدر الكفاية، بإيراد إجماع العلماء على عدم جواز الإقدام على تفسير القرآن دون الإلمام بالنحو، محاولة واضحة لها مغزى في السياق الأفريقي الذي يطوق فيه الكثير من العلماء إلى تقلد منصب (العالم مفسّر القرآن)[44].

3. سعت الرسالة لتكريس القيمة الدينية للخلوة والابتعاد عن أعين الناس لطلب القرب من الله والمكانة الخاصة، ورغبت أتباع الشيخ الأسمر إلى ذلك بإضفاء بعداً قيمياً يحظى بمباركة وتشجيع من الفكر الديني المقدّس، « طلبنا خمساً فوجدناها في خمس ... طلبنا ظلّ العرش فوجدناه في الخلوة »[45]، وهذه إشارة ذات دلالة معتبرة

43- الدكتور الخضر عبد الباقي محمد (2008) الخلافات الإسلامية، الإسلامية وانعكاساتها على واقع الدعوة الإسلامية في أفريقيا، الموسم الثقافي المفتوح بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية، زليتن ص 5-7

44- الخضر عبد الباقي محمد(2004)رمضان في نيجيريا والنشاطات العلمية للعلماء، مجلة الدعوة والدعاة موقع إسلام أون لاين.

45- مصطفى عمران رابعة، رسائل الأسمر مصدر سابق ص 239

في سياق المجتمع الأفريقي الذي يعلي من قيمة الغيبيات والارتباط بها عن طريق طقوس يلتزم بها[46].

4. أكدت الرسالة وبشكل إيجابي مطلق على قيمة القراءة القرآنية المنتشرة والمعهودة في بلاد أفريقيا وعلى وجه أخصّ منطقة الغرب منها، وهي القراءة برواية ورش وقالون، وعبّرت عن ذلك بالقول: « إخواني اقرؤوا القرآن على ما سلكه السلف الصالح كما في المورد والعمدة والمشروعين، واستظهروه على أحسن الروايات المشهورات كرواية يحي بن مينا الشهير بقالون »[47].

5. ومن التحذيرات التي وردت في الرسالة من الممارسات والأفعال ذات منحى سلبي، والتي تجذرت في بعض المجتمعات الأفريقية عادة البعض من ذكر حالة الفراش وتفاصيل ما جرى بين الزوجين، عادة أصبحت جزءا بل حديث التسلية في المجالس، والكتابات والبحوث الاجتماعية مليئة بقصص وحكايات مثيرة ومضحكة من هذا النوع[48].

6. أبرزت الرسالة أيضا وبالثناء والإشادة محورية دور المدارس القرآنية وقيمة دور الكتاتيب في تربية النشء على السلوك القويم، وتقوية قدرات الأطفال من النواحي الفكرية والتكوينية بشكل صحيح، وهي إشارة موفقة متماشية تعزّز من المكانة والقيمة الاجتماعيتين لتلك الكتاتيب ويعمّق الفكر والتصوّر الإيجابيين بشأنها[49].

46- للاستزادة من المعلومات يمكن الرجوع في هذا الجانب إلى كل من: آدم عبد الله الإلوري (1978) التقاليد الجاهلية في نيجيريا وما حولها ط أولى القاهرة: مكتبة وهبة ص 23-44 صبري سلامة (1999) بعض معتقدات الهوسا وعاداتهم: دراسة في الأدب الهوساوي، مجلة الدراسات الأفريقية العدد 21 القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة. مهدي ساتي صالح(2006) الإسلام وتداخل الثقافات في السنغال، ط أولى الخرطوم: جامعة أفريقيا العالمية، ص136-132

47- مصطفى عمران رابعة (2003) رسائل الأسمر إلى مريديه مصدر سابق ص239 وانظر: عباس زكريا المقرئ الإبادني (2007) التجويد في نيجيريا تاريخه وعلماؤه ط أولى إبادن: دار الناشر بدون ص 47-55

48- آدم عبد الله الإلوري (1978) الإسلام والتقاليد الجاهلية في نيجيريا وما حولها مرجع سابق ص 50

49- انظر حول التعليم القرآني والكتاتيب القرآنية في أفريقيا لدى كل من: زكريا عباس المقرئ الإبادني (2007) التربية وطرق التدريس القرآني لطلبة المعاهد التجويدية في أفريقيا، ط أولى، إبادن: دون الناشر ص 110-120 عبد الهادي مبروك الدالي (2000) الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا، ط أولى، بنغازي ص 127

7. أثبتت الرسالة سحرية متناهية لقيمة النقول والنصوص الموضوعة لجلب الخير وقضاء الحاجة، والمصاغة أساسا لضمان استجابة الدعوة، (النقل والجلب) وفي ذلك قالت: « فإذا كانت لكم حاجة عند أحد فاغتسلوا عند الرواح للجمعة ولا تكلّموا أحداً وصلّوا في ميامن الصف الأول بعد قضاء الفريضة أربع تسليمات بالفاتحة وآية الكرسي ثمّ يتوسل بها أيضا بعد الصلاة، ويسأل حاجته فإنّها تقضى»[50] كما أثبتت الرسالة ورداً ودعوة للتخلص من الكرب، وأشارت إلى أنّها « تقرأ عند كل كربة»[51] وخصصت أيضا أوراداً وأذكاراً أخرى للدفاع والتحصين من العيون والأرواح الشريرة، مثل « اللهم لا تكلني إلى نفسي ... أمددني بجيش من رقائق أسمائك القاهرة، تدافع عني من أرادني بسوء من جميع المؤذيات، وولني ولاية تقطع رقبة كلّ جبّار وكل جبارة»[52] هذه الإشارات كلها تأتي مؤكدة لما عهده الأفارقة وخبرته الذاكرة المركزية الأفريقية عن العيون والأشرار من ناحية، ولما استقرّ عليه العمل لدى علماء المسلمين في أفريقيا، الذين وضعوا أدعية وأوراداً وأذكاراً مخصصة لقضاء أنواع من الحوائج، جبراً لقلوب رواد المساجد، فهناك ما هو للحوائج وأخرى للقضاء على الأعداء، وغيرها لجلب الرضى ونيل المحبة من الناس، مما علجوا بها الوضع واستمالوا بها قلوب الأفارقة حديثي العهد بالإسلام[53].

50- مصطفى عمران رابعة(2003) رسائل الأسمر إلى مريديه مصدر سابق ص 251

51- المصدر نفسه ص 252

52- المصدر نفسه، الصفحة نفسها

53- الجلب: كلمة مشتقة من لفظ جلب، يقال: جلبَ الشيء، دفعه إليه، وهو مصطلح معروف ومنتشر في أوساط العلماء المسلمين في البلدان الأفريقية، وينطق بالباء المشبعة: جلبي، وهو اتجاه فكري قديم ومذهب عملي متجذر بين العلماء وطلبة العلم والأئمة في المجتمعات الأفريقية، حيث يعلي من قيمة بعض الأوراد والأذكار والاعتقاد بقوة مفعولها في جلب الخيرات وقضاء الحوائج وفي دفع المصائب والحماية من الأشرار، وقد تطوّر هذا الاتجاه في الآونة المتأخرة حتى أدخلت فيه ممارسات غريبة تحول بها إلى العلاج الشعبي التقليدي المشوب بالشركيات. يمكن الرجوع للاستزادة في ذلك إلى: آدم عبد الله الإلوري (1950) الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي ط أولى، القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي، ص 23 آدم عبد الله الإلوري (1979) توجيه الدعوة والدعاة في غرب أفريقيا ط أولى القاهرة: مطبعة وهبة، ص 10-20 الخضر عبد الباقي محمد (2005) الدعاة المعالجون في أفريقيا مكسب للدعوة أم جناية؟ مجلة الوعي الإسلامي، الكويت: وزارة الأوقاف الكويتية العدد 287 ص55